الفصل الحادى عشر

لقد ظلمنا الأمين وأسأنا إليه لأنه عربى !

أتابع رواية نص كتاب « الإمامة والسياسة » الذى بدأته فى مقالى الماضى ، قال ابن قتيبة : فأصاب منها لذته وقضى حاجته ، ولا علم له بذلك ، فلما كان المساء ، وهم بالانصراف أعلمته بنفسها وعرفته بأمرها ، وأطلعته على شديد هواها ، وإفراط محبتها له ، فازداد بها كلفاً ، وبها حباً ، ثم استعفاها من المعاودة إلى ذلك ، وانقبض عما كان يناله من جواريها ، واعتذر بالعلة والمرض . فأعلم جعفر أباه يحيى ، فقال له : يا بنى ، أعلم أمير المؤمنين بما كان معجلاً ، وإلا فأذن لى فأعلمه ، فإنى أخاف علينا يوم سوء إن تأخر هذا ، وبلغه من غيرنا . وإعلامك له فى هذا الوقت يسقط عنا ذلك الذنب ، فهى أحق بالعقوبة منك .

قال جعفر : لا والله لا أعلمته بذلك أبداً ، فالموت علىَّ أيسر منه ، وأرجو الله ألا يطلعه أحد ، فقال له يحيى : لا تظن هذا يخفى عليه ، فأطعنى اليوم وأعلمه ، فقال جعفر : والله لا أفعل

هذا أبداً ، ولا أتكلم بـه والله أستـعين . فلم يرع الرشـيد إلا أن رفـعت إليه جـارية من جـواريهـا رقعـة ، وأعلمت ذلك فـيهـا ، فاستحق ذلك عند الرشيد باستعفاء جعفر عما كان من إتحافها ، واعتذاره بالعلة من غير مـرض ينهكه ، فغفل عنه الرشيد ، ولم ير لذلك جفوة ، ولا زاد له إلا كرامة ، ولا لديه إلا حرمة ورفعة ، حتى قـرب وقت الهلاك ، ودنا منقلب الحتف والله أعلم (الإمـامة والسياسة ١٧٢ ـ ١٧٣) .

وهذه المرة نحن لسنا أمـام العـباسـة ، بل أمام أخت أخـرى لهارون الـرشيد هى فـاختـة ، وكانت شـقيـقة الرشـيد ، وهذه الأخرى ـ كمـا تزعم هذه القصة ـ وقعت فى جعـفر هذا ورغبت فيه حتى احتالت بهذه الحيلة العـجيبة التى رأيتها فى القصة . وصاحب القصة معجب به يثنى على فضائله وإخلاصه للرشيد حتى إن فاختة هذه رأت أنها إذا كان ولابد أن تجتمع بهذا الرجل فليس أمامها إلا أن تحتال لذلك ، فـاستأذنت أخاها فى أن تتحف جعفراً بالهدايا ، ثم مضت ترسل إليه الجوارى الرائعات أسبوعاً بعد أسبوع ، وهو كلما وصلته واحدة وقع بها ، ثم دست نفسها ذات جمعة مكان جارية ؛ ليقع بها دون أن يعلم ، ولابد أنها هى الأخرى كانت رائعة الجمال حتى ظـن جعفر أنها إحدى بديعات الحـوارى اللاتى كن يُرْسَلْنَ إليـهِ ، والإنسان مـنا يتعـجب : إذا كانت أخوات الرشيد بهذا الجمال فما الذى وقف بهن عن الزواج وجعلهن يتـهافتن على جعـفر هذا كأنه الفـتـى الذى ليس بعده

فتى ، ولا تراه امرأة إلا وقعت فيه ؟ وهذا أمر مستبعد ، فما ذكر أحد من المؤرخين أنه كان بهذا الجمال ، ولكن راوية هذا الخبر يعجب بجعفر ، ويرى أنه أتى من باب سوء الحظ ، فما كان لينال شيئاً من أخت الرشيد لولا احتيالها عليه ، بل إن هارون الرشيد نفسه لم يغضب عليه بسبب ما وقع لفاختة ؛ لأنه رأى أن الرجل برىء من الذنب ، فما كان يعرف أن هذه أخت الرشيد إلا بعد أن وقع ما وقع .

هذه ـ إذن ـ حكايات أشبه بحكايات ألف ليلة تناقلها الناس في الأسواق ، ثم اندست في كتب المؤرخين فرواها الطبرى وابن قتيبة وغيرهما ، وقد اجتهد ابن خلدون في الدفاع عن العباسة ولكنه تمسك بمسألة الأصل ، وقال إن العباسة ما كانت لتخطئ هذا الخطأ لأصلها الرفيع ، فهي حفيدة ابن عباس ، وأخت هارون أمير المؤمنين ، وهذا دفاع غير قاطع ؛ لأن المرأة قد تكون من أشرف الأصول ، ولكنها تزل مع ذلك ، وإنما يكون الدفاع من جهة المعقولية ، فما الذى يجعل هارون يزوج أخته العباسة من ذلك الرجل ، ثم يشترط عليهما عدم الخلوة ؟ ومادامت قد أصبحت امرأته شرعاً فكيف يمنع منها ؟ ثم ما الذى جعل فاختة تدبر هذا التدبير كله إذا كانت امرأة بارعة الجمال تستطيع أن تتزوج ممن تريد من علية القوم دون أن تترامى بهذه الصورة المهينة على مولى من موالى أخيها ؟ الحق أن هذه كلها حكايات مكذوبة تسيء إلينا وإلى خلفائنا دون أى مبرر لذلك ، وكان

أولى بالمؤرخين أن يتحاشوا مثل هذه الإساءة إلينا إذا كانوا على شيء من بعد النظر وصدق الإحساس بالعروبة والإسلام ، وإذا كان ولابد أن يرووها فلينبهوا إلى أنها حكايات مما يجرى على ألسن العوام فى الأسواق ويستبعدون صحتها .

وننتقل الآن إلى موضوع آخر من موضوعات التاريخ الإسلامى التى أفسدها المؤرخون بسوء الرواية ، أو برواية الأخبار دون تحقق ودون نظر إلى ما فيه خير المسلمين .فننتقل إلى خبر الأمين والمامون وما كان بينهما من حروب .

والقصة الشائعة تقول : إن محمداً الأمين ـ الذى خلف أباه هارون الرشيد بعهد منه ـ كان رجلاً فاسداً قليل العقل سيء التصرف ، وإن العداوة والحرب والتنافس إذا كان قد وقع بينه وبين أخيه المامون فإن المسئولية تقع عليه وحده ، فهو الغادر الذى خالف عهد أبيه بأن تكون الخلافة أولاً لمحمد الأمين ، فإذا مات انتقلت إلى أخيه عبد الله المأمون ، ومن بعده إلى أخيهما الثالث أبو القاسم المعتصم . أما المأمون فقد كان بحسب ما تقوله كتب تاريخنا عاقلاً أميناً محافظاً على عهد أبيه حتى جاءت الخيانة من ناحية اخيه ، وعندما نقرأ ما بين أيدينا من نصوص فإننا نجد أن الحقيقة كانت بخلاف ذلك ، وأننا فى الحقيقة نقرأ كلاماً موجهاً توجيهاً خاصاً ، هدفه تشويه صورة الأمين خدمة لأخيه المامون ، ولابد أن نذكر أولاً ـ وهذا مهم جدًا ـ أن الأمين عربى ، فهو ابن السيدة زبيدة العربية الهاشمية ، فى

حين أن أخاه المأمون كان نصف عربى ، فإذا كان أبوه هو هارون الرشيد فإن أمه « مراجل » مولاة إيرانية ، والإيرانيون يعتبرونها أميرة فارسية ويتحمسون لها ، بالضبط كما فعلوا مع الحسين بن على - رضى الله تعالى عنه - عندما زعموا أنه خليفة الأكاسرة الفرس ؛ لأن أمه أميرة فارسية تزوجها على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وأمثال هذه التشويهات كثيرة فى كتب التاريخ الإسلامى، ومصدرها دائماً هم الفرس ؛ لأن هؤلاء الفرس عز عليهم أن ينتصر العرب البدو الصحراويون على الأكاسرة ويزيلوا دولتهم ويجعلوا دولة العرب والمسلمين مكانها ، وهؤلاء الفرس لم يكونوا مخلصين للأكاسرة الساسانيين ، ولم يكونوا من المعجبين بهم بصورة مطلقة ؛ فإن الأكاسرة لم يكونوا فى جموعهم ملوكاً منصفين أو عادلين أو محسنين ، ولكنها العصبية الفارسية على العرب . وهى ظاهرة تاريخية تنبه لها بعض الأذكياء من مفكرى الإسلام ، منهم أبو محمد على بن أحمد بن حزم الأندلسى ، فقد قال ذلك صراحة فى كتابه «الفصل فى الأخبار والملل والنحل »

ونرجع الآن إلى كتبنا التاريخية لنرى كيف تصور لنا محمداً الأمين ومسئوليته عن الخلاف الذى وقع بينه وبين أخيه، فنقرأ فى تاريخ الطبرى (٨ / ٥٠٨) : ذكر عن حميد بن سعيد قال : لما ملك كاتبه المأمون وأعطاه بيعته وطلب الخصيان

وأتباعهم ، وغالى بهم ، وصيرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه ، وفرض لهم فرضاً سماهم الجرادية ، وفرضاً من الحبشان سماهم الغرابية ، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رمى بهن ... قال حميد : ولما ملك محمد وجه إلى جميع البلدان فى طلب الملهين ، وضمهم إليه وأجرى لهم الأرزاق ، ونافس فى ابتياع فره الدواب ، وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك ، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وقسم ما فى بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه ، وحمل إليه ما كان فى الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلواذى وباب الأنبار وبتادرى والهوب ، وأمر بعمل خمس حراقات فى دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس ، وأنفق فى عملها مالاً عظيماً ، فقال أبو نواس يمدحه .. إلخ .

فهل كان محمد الأمين فعلاً كذلك ؟ وإذا كان على هذه الصورة من قلة العقل وانعدام الكفاية فهل كان ذلك كله خافياً على أبيه الرشيد فبايع لابنه بالخلافة دون أن يعلم حقيقة أمره فلم ينكشف هذا كله إلا بعد وفاة أبيه ؟

تعالوا ندرس محمدًا الأمين بشىء من التروى ، لنرى إن كان

من الممكن أن يكون فعلاً على هذه الصورة أو أنها كانت صورة زائفة أذاعتها عنه دعاية خاصة لتشويه صورته والإساءة إليه؟ وقبل أن نمضى فى هذا التحقيق نسأل : ما هى حكاية هذه الحراقات التى أمر الأمين بصنعها وإطلاقها فى نهر دجلة . إن لفظ الحراقة يطلق على نوعين من السفن كما نقرأ فى المعجم الوسيط (١ /١٦٨) فهى (ضرب من السفن فيها مرامى نيران ترمى بها العدو فى البحر ـ وسفينة خفيفة) وحيث إن الأمين عمل هذه المراكب للتنزه فى نهر دجلة فلابد أن المراد هنا هى السفن الخفيفة أى مراكب النهر التى تزين مقدماتها أو مؤخراتها بصورة أسد من الخشب أو الفيل أو العقاب أو الحية أو الفرس ، وهى ـ على هذا ـ ليست ضخمة أو كثيرة التكاليف كما يفهم من النص ، وإنما أشياء عادية وقليلة التكاليف مما يستمتع به بعض الأغنياء . وهو على هذا لم ينفق فى عملها مالاً عظيماً كما يقول نص الطبرى ، أو كما يفهم من شعر أبى نواس فيها ، وأبو نواس على أى حال شاعر تعجبه هذه المناسبات يقول فيها ما يشاء من الشعر ، ولكن المؤرخ لا يعتمد هنا على كلامه أو يعول عليه .

والآن ، فلنلق نظرة على محمد الأمين من أول ولايته وينبغى أن نلاحظ أن الأمين والمامون كانا فى سن واحدة تقريباً، فإنهما ولدا سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦ م ، وهى السنة التى تولى فيها هارون الرشيد الخلافة ، وعبد الله المأمون ولد قبل

أخيه محمد الأمين بستة أشهر . فليس هنا - كما ترى - كبير أو صغير ، ولا يمكن أن يقال : إن هارون الرشيد تخطى الكبير وبايع للأصغر ، فإن ستة أشهر هجرية ليست بفارق سن يذكر، وإنما الرشيد رأى أن ابنه العربى الصريح ، أى المولود من أب عربى هاشمى وأم عربية هاشمية أولى بالتقديم فـفعل . ولكن الخطأ الحقيقى وسبب البلاء الأكبر كان ذلك العهد والميثاق الغريب الذى كتبه الرشيد بين الأخوين وأشهد عليه الناس . فهذا فى الحقيقة ليس بنص ولاية عهد أو وثيقة تنظيم داخلى للدولة . وإنما هو كان فى الحقيقة تقسيماً للدولة قسمين بين رجلين ، ولا يجوز لأحد منهما أن يمس الآخر . وإذا نحن قرأنا مليّاً وجدنا أنفسنا أمام أسوأ عهد من نوعه كتبه خليفة . وهارون الرشيد يلام على صياغته على هذا النحو لوماً شديداً . ويمكن أن يقال : إنه كان هو نفسه أكبر أسباب الخلاف بين ابنيه ، فإن نص ولاية العهد لابنيه محمد الأمين ثم عبد الله المأمون لم يكن فى الحقيقة نص ولاية عهد ، بل كان فى الحقيقة تقسيماً للدولة بين الأخوين تقسيماً تامّاً . فللمأمون كل أرض الدولة من الرى (وهى مكان طهران تقريباً ، وهى أول خراسان غرباً) إلى آخر حدود خراسان شرقاً . وللأمين الباقى ، فإذا توفى الأمين ورثه المأمون فى كل ما بيده إرثاً شرعيّاً مقرراً .

وما دمت قد ذكرت لك أن الأخوين كانا فى سن واحدة تقريباً فإنه - والاعمار دائماً بيد الله - كان يستبعد أن يرث

أحدهما الآخر ، خاصة أنهما ولدا سنة ١٧٠هـ ./ ٧٨٦م وتوفى أبوهما الرشيد سنة ١٩٣هـ / ٨٠٨م فكانت سنهما عندما توفى الأب ثلاثاً وعشرين سنة هجرية ، واثنتين وعشرين سنة ميلادية ، وهذه سن صغيرة جدًا بالنسبة للمسئوليات الجسيمة التى حملها كل من الاثنين ، فإذا فكرنا أن كلا منهما كان محوطاً برجال من صنائعه ممن يحسنون له كل ما يرون أنه من صالحهم - وليس من الضرورى أن يكون من صالحه - تبينًا أن بذور الخلاف قد وضعت بالفعل بين الأمرين من يوم هذه البيعة المشئومة ، خاصة أن كلا من الشابين كان له وزير أنانى شرير لم يدخر وسعا فى تزيين الشر له ودفعه إلى الخلاف مع أخيه .

ولا يتسع المجال هنا لكى آتيك بنص ولاية العهد وتقسيمها بين ابنى الرشيد محمد (الأمين) وعبد الله (المأمون) ثم أضيف إليهما بعد ست سنوات (أبو القاسم المعتصم) فهو نص طويل جداً . وهو عندك فى تاريخ الطبرى تستطيع أن تقرأه (٨ / ٢٧٨ - ٢٨١) ولكن إليك فقرة واحدة منه فحسب ، وهى وحدها تدلك على خطورة هذا العهد الذى أخطأ الرشيد وكتبه بين ابنيه، تقول الوثيقة : .. فإن حدث بأمير المؤمنين (الرشيد) حدث الموت وأفضت الخلافة إلى محمد ابن أمير المؤمنين فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين فى تولية عبد الله أخيه أمير المؤمنين خراسان وثغورها ومن ضم إليه أمير المؤمنين

بعرماسين (اسم موضع) وأن يمضى عبد الله ابن أمير المؤمنين إلى خراسان والرى والكور التى سماها أمير المؤمنين .

حيث كان عبد الله أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحب من لدن الرىّ إلى أقصى عمل خراسان . فليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين ، ولا يحول عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التى ولاه إياها هارون من ثغور خراسان وأعمالها بكلها ما بين عمل الرى مما يلى همذان إلى أقصى خراسان وثغورها وبلادها وما هو منسوب إليها ، ولا يشخصه (أى يستدعيه إلى بلاطه) ولا يفرق أحداً من أصحابه وقواده عنه ، ولايولى عليه أحداً ، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله ولا على أحد من ولاة أموره بحذاراً (مراقباً) ولا محاسباً ولا عاملاً ، ولا يدخل عليه فى صغير من أمره ولا كبير ضرراً ، ولا يحول بينه وبين العمل فى ذلك كله برأيه وتدبيره ، ولا يعرض ممن ضم إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته وقضاته وعماله وكتابه وقواده وخدمه ومواليه وجنده بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم فى أنفسهم ولا قرابتهم ولا أحد بسبيل منهم ، ولا فى دمائهم ولا فى أموالهم ولا فى ضياعهم ودورهم ورباعهم وأمتعتهم ورقيقهم ودوابهم شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً . إلى آخر هذا الميثاق الذى يبدو لمن يقرؤه وكأنه تحد أو دفع إلى المعصية والخلاف .

فما معنى هذا التحفظ والاحتياط كله إلا إذا كانت القلوب حافلة بالشر ودوافع الغدر ؟ وإذا نحن علمنا أن هذا العهد يتضمن فقرة كاملة على المأمون تشترط عليه وتتحفظ منه بقدر ما اشترطت على الأمين رأينا أن المسألة فى ذاتها كانت مستحيلة .

ولماذا هى مستحيلة ؟

لأن أهم شيء فى مثل هذه العهود هو حسن النية وسلامة السريرة ، وسترى بعد قليل أن القلوب كانت عامرة بالشر وسوء النية ، وسيبدو لنا بعد قليل أن الرشيد كان على علم ببواطن الأمور وإلا ما تحفظ هذا التحفظ كله .

وأسوأ ما فى الموضوع هو أن الرشيد كتب هذا العهد الدقيق بين شابين أو غلامين دون أى تجربة ، وسنرى بعد قليل أن وزراءهما ورجالهما كانوا من عقارب أهل السياسة والخدمة ، وأنهم سيلعبون بهما لعباً .

إذن فما الذى كان ينبغى عمله فى مثل هذه الظروف ؟

إذا كان لأميرالمؤمنين ابنان متقاربان على هذه الصورة فماذا كان ينبغى أن يفعله بدلاً من ذلك العهد الذى كتب وترك فى أيدى غلامين ؛ ليكون كل منهما حرًا كل الحرية فى تصرفاته ورقيباً على نفسه فى نفس الوقت ؟

الذى كان على الرشيد أن يعمله مكان هذا التعهد الذى لا معنى له هو أن يكون للدولة مجلس أعلى من ذوى الحل والعقد

والرأى والعلم من القواد والوزراء والعلماء والفقهاء هو الذي يتولى التوسط والفصل بين هذين الأخوين والتوسط بينهما إذا وقع شيء ولم يكن هناك معنى لكتابة مثل هذا العهد ، وإنما هو قانون للخلافة يكون بين أيدى رجال هذا المجلس ، وتكون بأيديهم أيضاً القوة العسكرية ، ويكون الخليفة المعين تحت إشراف هذا المجلس الذى يوجهه فى كل أعماله ، ويرأس الخليفة وأهل بيته جميعاً فلا يكون عبد الله المأمون مستقلاً بنفسه فى خراسان وكل ما يليها شرقاً مستقلاً بنفسه وكأنه سلطان ، ولا يكون هناك أى معنى لهذا التحفظ كله .

ومعنى هذا هو أننى أعود فأقول : إن الشيء الأساسى الذى نقص نظام الدولة عندنا هو القانون الأساسى أو الدستور الذى يحدد الحقوق والواجبات ، ويحفظ حقوق الحاكمين والمحكومين ، أما الحكم على هذه الصورة فهو استبداد مهما اشترطت على محمد الأمين للمحافظة على حق أخيه ، وسنرى أن المأمون ـ لظروف سنشرحها ـ كان يدبر لا نتزاع الخلافة من أيدى أخيه من أول الأمر ؛ لأن المسألة لم تكن مسألة الأمين والمأمون فحسب ، بل كانت مسألة الفرس والعرب ؛ فإن عبد الله المأمون كان ابن جارية فارسية تسمى مراجل ، والفرس قالوا إنهم أخواله ، وكانت البيعة له بولاية العهد لأخيه وسنه ثلاث عشرة سنة ، أى غلام ، ونشأ عبد الله بين أيديهم ، فقرر أصحاب الأمر منهم من حوله أن يستعملوه : لينتزعوا الخلافة من أيدى العرب .